



كان فلاديمير بوتين ينتظر الفرصة المناسبة لتصفية حسابه مع أميركا التي دفعت الاتحاد السوفيتي إلى المتاحف.

كان يريد أن يثار من محاولتها تطويق روسيا بتحريك بيادق حلف الأطلسي قرب حدودها ومن تشجيعها الثورات الملونة على أطراف الاتحاد الروسي.

كان يحلم بهز ركائز صورة القوة العظمى الوحيدة وإنهاء عهد «الغطرسة الأميركية».

وكان يدرك أن عملية الثأر ممكنة مع وجود رئيس اسمه باراك أوباما يهجس بإعادة الجنود من الحروب ويعصاب بالذعر من فكرة إرسالهم إلى حروب جديدة.

رئيس الأميركي يعتبر أن للقدرة الأميركية حدوداً وأن أميركا نزفت من جيشهما واقتصادها ما يلزمها التخلّي عن الحروب الجوالة وسياسة اقتلاع الأنظمة.

وجد بوتين في الأزمة السورية فرصة الذهبية. لن يسمح بتكرار المشهد الليبي. لن يمرر في مجلس الأمن ما يسمح بإعطاء ظلال من الشرعية لعملية اقتلاع النظام السوري.

ثم إن سورية يمكن أن تكون فرصة لاعتراض «الربيع الإخواني» وكسر الموجة الإسلامية. فرصة لإظهار حدود الدور الأميركي.

نجحت روسيا في عملية شراء الوقت للنظام السوري. وربما كانت تعتقد بقدرتها على حسم النزاع على معظم الأراضي السورية إن لم يكن على كاملها.

عملية جنيف نفسها بدت من جانب موسكو أشبه بعملية لشراء الوقت. ظهر ذلك جلياً خلال انعقاد «جنيف 2».

حاول الأخضر الإبراهيمي عبثاً دفع الروس إلى دور أكثر جدية في البحث عن الحل. كان سيرغي لافروف يسارع إلى إغلاق الباب. في المرة الأولى قال له إن محادثات «جنيف 1» لم تطرق إلى مصير الرئيس بشار الأسد ما يعني أن الهيئة الانتقالية

ستشكل في ظل الرئيس.

المرة الثانية كان أكثر وضوحاً قال: «إن قدرتنا على ممارسة الضغوط على الأسد أقل من قدرة الولايات المتحدة على ممارسة الضغوط على بنiamin Netanyahu».

فهم الإبراهيمي الرسالة وبدأ يربّ موعد خروجه من مهمته. ويفضل المساعدة الروسية الدبلوماسية والتسلية ومعها المساعدة الإيرانية المالية والميدانية تمكن النظام السوري من البقاء لكن على جزء من الأراضي السورية.

في قراءة التحركات الروسية الجديدة اليوم لا بد من الالتفات إلى مجموعة عوامل جديدة.

الأزمة الأوكرانية والعقوبات الأمريكية والغربية على روسيا. الإطلالة المدوية لـ «داعش» ونجاحها في إلغاء الحدود العراقية – السورية. أدت هذه الإطلاعة إلى عودة الطائرات الأمريكية إلى أجواء العراق وسوريا في مهام قتالية.

أدت أيضاً إلى إعادة ترتيب الأخطار والأعداء لدى كثرين وبينهم المبعوث الدولي الجديد ستيفان دي ميستورا. والعامل الذي لا يمكن تجاهله أيضاً هو هبوط أسعار النفط وتهاوي سعر صرف الروبل الروسي.

ثمة من يذهب بعيداً في الشكوك وإلى درجة القول إن خطة دي ميستورا تحمل في طياتها صدى لأفكار روسية وإيرانية.

ويذهب هذا الفريق أبعد ليقول إن التحرك الأخير لنائب وزير الخارجية الروسي ميخائيل بوغدانوف يرمي إلى توفير ثياب سياسية لخطة دي ميستورا وإلى ترسیخ فكرة بناء النظام وتحويل الحل إلى مجرد تشكيل حكومة وحدة وطنية في سوريا بعد تقسيم المعارضة أكثر مما هي مقسمة وهو ما أوحّته إشارات بوغدانوف في لقائه معها.

من التسرع القول إن تهاوي سعر الروبل سيدفع روسيا إلى تغيير موقفها في سوريا.

ومن التسرع أيضاً الاستنتاج أن روسيا تفضل أن تدفع في سوريا لأنها لا تستطيع أن تدفع في أوكرانيا.

لكن من الخطأ الاعتقاد أن روسيا تستطيع تجاهل كل هذه العوامل الجديدة والتعامل معها كأنها لم تحدث.

سمع بوتين ولافروف في الشهور الماضية كلاماً عربياً يحض روسيا على لعب دور نشط في حل سياسي للأزمة السورية. ثمة من لفتهما إلى أن سوريا تحولت مختبراً لانتاج أجيال من المتطرفين وبينهم فتیان جاؤوا من الشيشان وداغستان وسيعودون في النهاية إلى الاتحاد الروسي.

وتحتاج من قال لها إن خصوم النظام السوري الحالي لا يريدون أبداً تدمير ما تبقى من الدولة السورية في الإدارة والمؤسسة العسكرية والأمنية وأن الحل قد لا يستلزم إبعاد أكثر منأربعين شخصاً.

لم يلمس المتحدثون أن روسيا غيرت موقفها لكنهم يعتقدون أن العوامل الجديدة قد تفتح الباب لقراءة روسية أكثر واقعية إذا تبين أن تأكل الروبل قد يهدد بتأكل مشروع بوتين برمته.

لم تعد الأزمة السورية فرصة لروسيا لتسجيل النقاط. ها هي سوريا تحول فيتنام بشرية ومالية وأصولية ومذهبية.

إنها مكلفة للجميع ولا بد من إعادة القراءة. لا خطة دي ميستورا تكفي ولا الأعيب بوغدانوف. إطفاء فيتنام السورية يحتاج إلى قرارات كبرى لا بد من اتخاذها. والمزيد من الانتظار لا يعني غير مضاعفة التكاليف وهي باهظة أصلاً.

